خطط النحو في الجامعات الأردنية
أليست مسؤولة عن ضعف الخريجين !!

يـوسف ربابعة *

نشهد في مدارس التعليم العام، وفي الجامعات، ضعفاً ملحوظاً في أوساط الطلبة في اللغة العربية؛ ضعفاً علمياً ووظيفياً: في القراءة والكتابة والتعبير والاستيعاب والتواصل، وفي تحصيل علوم اللغة العربية، وفي حقيقة الأمر، فإن الشكوى من تدني مستوى الأداء اللغوي قديمة وليست حديثة. فقد لحظ ابن الجوزي (ت 510) شيوع اللحن في عصره، مما دفعه إلى تأليف كتابه «تقويم اللسان»، وقال في مقدمته: «إني رأيت كثيراً من المنتسبين إلى العلم يتكلمون بكلام العوام المرذول جرياً منهم على العادة، وبعداً عن علم العربية، فعزمت على تأليف كتابي هذا» كما أن ما لحظه ابن منظور ت 711 من ذيوع اللحن في العربية كان سبباً في تأليف: «لسان العرب»، إذ يقول في مقدمته: «وذلك لما رأيته قد غلب في هذا الأوان من اختلاف الألسنة والألوان، حتى لقد أصبح اللحن في الكلام يعد لحناً مردوداً، وصار النطق بالعربية من المعايب معدوداً، وتنافس الناس في تصانيف الترجمانات في اللغة الأعجمية، وتفاصحوا في غير العربية فجمعت هذا الكتاب في زمن أهله بغير لغته يفتخرون»

وفي العصر الحديث منذ ثلاثينات القرن الماضي نبه طه حسين في كتابه «الأدب الجاهلي» إلى «أن لغتنا العربية لا تدرس في مدارسنا، وإنما يدرس فيه شيء غريب لا صلة بينه وبين الحياة، ولا صلة بينه وبين عقل التلميذ وشعوره وعاطفته» والظاهر أن مشكلة ضعف الطلبة في اللغة العربية كانت شائعة في ذلك الوقت؛ فقد نقل رشدي طعيمة في كتابه الأسس العامة لمناهج تعليم اللغة العربية (1998) نصاً نُشر في «صحيفة دار العلوم» سنة 1935 للأستاذ عبدالله عبدالجليل، يقول فيه: «لغطت الصحف اليومية في موضوع ضعف الطلبة في اللغة العربية لغطاً لم يستطع التحرز منه قراء هذه الضجة حول هذا الموضوع ... أما ضعفهم، فيما أسمع وأرى إنما هو من ناحية انتفاعهم بما يدرسون من القواعد فيما يقرؤون، وفيما يكتبون، وفيما يتحدثون. أي أنهم لا يحسنون إعطاء أواخر الكلمات حقوقها، وتطبيق هذه القواعد قراءة وكتابة وحديثاً»

وبعد ذلك وصفت الدكتورة بنت الشاطئ في الستينات (1969) حال المتعلمين في زمانها بقولها: «الظاهرة الخطيرة لأزمتنا اللغوية هي أن التلميذ كلما سار خطوة في تعلم اللغة العربية زاد جهلا بها، ونفورا منها، وصدودا عنها، وقد يمضي في الطريق التعليمي إلى آخر الشوط

* جامعة فيلادلفيا – الأردن

فيتخرج في الجامعة وهو لا يستطيع أن يكتب خطابا بسيطا بلغة قومه، بل قد يتخصص في دراسة اللغة العربية حتى ينال أعلى درجاتها، ويعييه مع ذلك أن يملك هذه اللغة التي هي لسان قوميته ومادة تخصصه»

وتستمر صيحات الشكوى في السبعينات، حيث يرى الدكتور هادي نهر (1978) «أن لغتنا أصبحت اليوم كمئذنة يلفها الغبار، فالناطقون يضيقون بها، ويهربون من قواعدها وتراكيبها، بل إن بعض المتعلمين العرب لا يعرفون تركيب جملة عربية سليمة السكنات والحركات، والأنكى من ذلك أننا نرى بعض طلبة الجامعات في أقسام اللغة العربية وآدابها لا يدركون فصاحة القول؛ لسانهم يلحن، ومعارفهم اللغوية على المستويات كلها لا تتناسب وشهادتهم الجامعية»

ويقول محمود عمار: «أصبح الخطأ في اللغة هماً يؤرق جفون المهتمين والمعلمين وأولياء الأمور، وأساتذة الجامعات، والغُيُر من أبناء الأمة، وضجت الشكوى من هذا الضعف في كثير من البلدان العربية، وتنادت الصحف، والندوات، والمؤتمرات، والمجامع بأن هذا الضعف أصبح بدرجة يهدد اللغة العربية واقعاً ومستقبلاً، يُخشى منه على الأمة، وشخصيتها، وعقيدتها، وكيانها، وصلتها بتراثها وجذورها». ويؤكد رشدي طعيمة (1998) ضعف الطلبة في اللغة العربية بقوله: «إن شكوانا من ضعف أبنائنا في اللغة بشكل عام، ومن عدم قدرتهم على التعبير بشكل خاص أمر لا يحتاج إلى دليل»

ولم يسلم من هذا الضعف حتى طلاب الدراسات العليا من المتخصصين في اللغة العربية فضلاً عن غير المتخصصين. يقول الدكتور فخر الدين قباوة: «... ولا أغالي إذا قلت، بعد ما شهدته في مختلف البلاد العربية من جامعات ومعاهد ومؤسسات تعليمية: إن الرسائل العلمية التي تنتجها أيدي المتخصصين في علوم العربية، وعلم النحو خاصة، تنتشر فيها صور اللحن والإحالة في التعبير، وقل أن تجد ما صفا وخلا وكان معافى من البلاء.»

أسباب ضعف الطلبة في اللغة العربية:

تعددت أسباب ظاهرة ضعف الطلبة في اللغة العربية فهناك من يرى أنها نتيجة انتشار العامية في الوطن العربي، وهناك من يرجعها إلى ثنائية اللغة بين المدرسة والبيت والشارع. ومن الباحثين من يرى أن ضعف الطلبة في اللغة العربية إنما هو بسبب سوء تصميم المناهج المدرسية، كما أن الكتب المدرسية ينقصها عنصر التشويق والارتباط بواقع الطلبة وحياتهم ومتطلباتهم، وتأخر أساليب تقويم الطلبة. وهناك من يقول إنها تعود إلى المعلم وتأهيله وطريقة تدريسه، ومنهم من يرجعها إلى الطالب نفسه وعدم جديته ورغبته في إدراك المهارات الأساسية في اللغة العربية، وهناك من يحمل الإعلام ووسائله المختلفة مسؤولية هذه الظاهرة الخطيرة. كما أن من بين الباحثين، ومنهم أحمد المعتوق، من يعزو الضعف في اللغة إلى المشهد الثقافي العربي حيث «الهبوط الثقافي العام، وعدم وجود ارتباط وثيق بمصادر التثقيف الرئيسة أو الغنية وخاصة المواد المقروءة، هذا بالإضافة إلى أسباب أخرى مختلفة المحاور تتعلق بالحياة المادية القائمة، وبالصراع الفكري والتذبذب الثقافي الذي يعيشه المجتمع العربي، والنقلات والتغيرات الحضارية التي يشهدها.

مناهج تعليم اللغة العربية في قفص الاتهام:

أضحى الاهتمام بالمناهج المدرسية، وبمحتواها، وصناعتها، وتطويرها، وتأثيرها، وانعكاساتها على الفرد والمجتمع والأمة، سمة بارزة من سمات التحول والتطور في القرن الحادي والعشرين. ومع أن الاهتمام بالمناهج المدرسية لم يكن وليد الساعة، فهو الشغل الشاغل للتربويين والعاملين في ميدان المناهج وطرق التدريس منذ بداية التعليم الرسمي، إلا أنه لم يبرز بمثل هذا الوضوح، أو على تلك المستويات، بمثل ما نشهده هذه الأيام، حتى أصبح حديث الساعة فعلا، وهذا الاهتمام الكبير من السياسيين والاقتصاديين والمثقفين وعلماء النفس والاجتماع، وقبل ذلك التربويين، مرده الشعور بأهمية المناهج المدرسية، وبدورها الكبير في حفظ هوية الأمم، ونقل تراثها، وإرساء قواعد الأمن فيها، وتعزيز جوانب النمو والتطور بين أفرادها، وتثبيت مكانتها بين الأمم، لذا، فلا غرابة أن يكون لمناهج تعليم اللغة العربية نصيب من النقد والاتهام لدورها في ضعف الطلبة والطالبات في فنون ومهارات اللغة العربية، ولقصورها عن تحقيق الأهداف اللغوية والتربوية والوطنية التي وضعت من أجلها. ويتضح مما سبق الإشارة إليه في أسباب ضعف الطلبة في اللغة العربية أن هناك ثمة أسباب تعود بصورة مباشرة إلى مناهج اللغة العربية بالمفهوم الواسع للمنهج المدرسي الذي يشمل الأهداف، ومحتوى الكتب المقررة، والوسائل التعليمية، وطرق التدريس، وطرق التقويم المتبعة، والأنشطة غير الصفية.

-افتقارها إلى عنصر التشويق، لعدم ارتباطها بواقع الطالب وحياته العملية وحاجاته ومتطلباته وظروف عصره.

- افتقارها إلى الترابط، بحيث يسير تدريس كل مادة – أحياناً- بشكل مستقل عن المواد الأخرى، وهذا مما يبدد جهد الطالب ويفقده الإحساس بترابط جوانب اللغة وحيوية موضوعاتها.
- إن بعض النصوص المختارة في هذه الكتب والمقررات لا تتلاءم مع المستوى العقلي واللغوي لناشئة هذا العصر.
- إن كثيراً من المقررات الدراسية يتصف بالتقريرية التي يُكتفى فيها بسرد الموضوعات، وشرح بعض النصوص وتفسير طائفة من الكلمات بشكل رتيب أو شكلي في الغالب.
- اتصاف كثير من مقررات النحو والصرف بشئ من الجفاف والتعقيد والرتابة وعدم التركيز على الوظيفة الأساسية لعلمي النحو والصرف وهي ضبط الكلمات وصيانة اللسان من الخطأ في النطق، وسلامة الكتابة مما يشينها.
- تقديم اللغة للطلاب في كتب منفرة لا تحبب الطلبة إلى ما يدرسون أو يقرأون فيها.

ملاحظات على الخطط المستخدمة في الجامعات الأردنية:

لقد حاولت هنا أن اطلع على مجموعة من خطط النحو العربي التي تدرس في الجامعات الأردنية، وأخذت عينة من خمس جامعات حكومية وخاصة، ومن خلال تحليل محتواها، تبين ما يأتي:

1. عادة ما يدرس النحو في الجامعات بواقع ثلاث مواد تسمى نحو 1 و2 و3 ولا تعطي هذه التسميات قيمة إضافية لمستويات النحو التي يهدف المنهج إيصالها للطالب.
2. تقسم بعض الجامعات موضوعات النحو على الأنحاء الثلاثة بما يسمى المرفوعات والمنصوبات والمجرورات.
3. بعض الخطط في بعض الجامعات تتكرر الموضوعات في مادتين وذلك لغياب التنسيق بين المدرسين .
4. تتبع جميع الخطط عرض موضوعات النحو على شكل دروس منفصلة كل منها عن الآخر.
5. هناك مشكلة في توزيع الموضوعات على الزمن ،

بل إن الموضوعات المطروحة هي عبارة عن قضايا يندر استخدامها، وربما تكون غير مستخدمة مطلقا، وليس في دراستها أي فائدة وظيفية، ومن الأمثلة على ذلك

الخطة التالية، المبنية على الشكل التالي:

- اسم المادة: النحو العربي(2)
- الموضوعات:

1.كان وأخواتها
2.(ما ولا ولات وإن) المشبهات بليس

الامتحان الأول

3.أفعال المقاربة
4.إن وأخواتها

الامتحان الثاني

5.(لا) النافية للجنس

الامتحان النهائي

فأغلب هذه الموضوعات لا تستخدم إلا نادرا، كما أنه ليس من المعقول أن تدرس لا النافية للجنس على مدى أكثر من شهر.

6. هناك غياب كامل لفكرة التركيب والتي هي الفكرة الأساسية لعلم النحو ذلك أن كل الذين يتعاملون مع النحو يعتقدون أنه حركات أواخر الكلمات كما ورد عند بعض النحاة القدامى، ونسينا أن الإعراب جزء بسيط من هذا العلم، وأن الأهمية لدراسة التراكيب.
7.أما الأهداف فهي في الغالب عامة وإنشائية، لا تعدو كونها عبارات مكرورة أو ما يسمى كليشيهات لا معنى لها.

من هنا يصبح الحديث عن تطوير الخطة أمرا ملحا وحاجة ضرورية، مع الاستفادة من علم اللغة الحديث والحاجة الوظيفية للغة بعيدا عن العبارات المصنوعة والشواهد الملغزة، وإعادة تسمية مواد النحو لتكون معبرة عن مضامين التراكيب، فيمكن أن نقسمها إلى ثلاثة أقسام نسمي الأول الجملة البسيطة، وندرس تحتها نوعي الجملة وعناصرهما الأساسية، وما يدخل عليهما فيؤثر في تركيبهما. والثاني نسميه الجملة المطورة أو المركبة وندرس فيه كل مكملات الجملة بعد عناصرها الأساسية، والثالث نسميه الأساليب اللغوية وندرس تحته كل الساليب المستخدمة، أما نحو 4 في بعض الجامعات أو مادة التطبيقات النحوية والصرفية في جامعات أخرى فيمكن أن نسميه: بناء الفقرة والنص ونركز فيه على الكتابة، وأنواعها، بحيث يكون التركيز على الجانب العملي منها، ومن هنا يصبح التباكي على الطلبة وضعفهم في النحو واللغة أمرا واقعا له أسبابه الموضوعية، وليس فقط مسؤولية الزمن الذي صرف الطلبة عن الاهتمام بلغتهم.